دم يوسف – جليل وادي

فبراير 2, 2019



كلام أبيض

دم يوسف – جليل وادي

لست ضليعا باللغة ولا متبحرا بها، واعاني كغيري من عقدة الهمزة، ولست من الذين يُشار لهم بمجرد الاطلاع على اسلوبهم في الكتابة، لكني مدرك تمام الأدراك أهمية اللغة في وحدة الامة، وانها المدخل الذي لا مدخل بعده للارتقاء بها، وهذا ليس قولي، بل قاله كثيرون غيري، وأولهم المفكر الفرنسي لويس ماسنيون (1883 ـ 1962) الذي قال : اذا أردت الارتقاء بامة عليك الارتقاء بلغتها، وعززه علماء النفس الاجتماعي بربطهم بين اللغة والفكر، فقالوا ان اللغة وعاء الفكر، بمعنى ان لا لغة من غير فكر ولا فكر من غير لغة، ولكم ان تطلعوا على كتاب الاستاذ الجليل الدكتور نوري جعفر (اللغة والفكر) الذي أصدره في تونس عام 1971، وليس هذا فحسب، بل ان اللغة هي الآلية التي بها نفكر، أي ان الدماغ عندما يفكر يستعين باللغة، ولذلك فان مستوى الفكر مرهون بمستوى اللغة، وعلى هذا فالذين يمتلكون ناصية اللغة ينتجون فكرا مميزا، ولم يحدث أن أنتج الجهلاء باللغة فكرا، وربما يلمس المعلمون والمدرسون ذلك بوضوح لدى طلبتهم، فمن يمتلك مستوى متقدما من اللغة يتقدم على زملائه بالتفكير والفكر، وهذا يعني ان اللغة ليست وسيلة للتعبير عن الأفكار فحسب كما قال الدكتور رياض شهيد في اعتراضه على أطروحتي التي ربطت بها بين الخيال واللغة في الندوة الدولية الموسومة (فضاءات التفضيل الجمالي بين الدراما التلفزيونية والفنون المسرحية) التي نظمتها كلية الفنون الجميلة بجامعة ديالى للمدة (18 ـ 19 آذار 2018)، وكنت افترض : بما ان اللغة آلية تفكير فأنها تحرك جميع العمليات العقلية الأربع التي يقوم بها الدماغ والمتمثلة بالتفكير والتخيل والتصور والتذكر، فالفكر يكون عميقا والخيال خصبا عندما تكون حصيلة الأفراد من اللغة ثرية، وعندما يكون مستوى لغة الجماعات والشعوب متدنيا ومتباينا فانه يقلل بقدر كبير من التفاهم بينهم ، ويوتر مزاجهم الاجتماعي، وتتصدع وحدتهم، ولذلك أفرد كثير من الباحثين فصولا من كتبهم لتبيان أهمية اللغة في تمتين وحدة الامة، وعدوها العمود الفقري لتشكيل الوعي وتعميق الشعور بالانتماء والحفاظ على هوية الامة وشخصيتها، بحسب ما أكد ذلك رواد الفكر العربي كساطع الحصري وزكي الأرسوزي وقسطنطين زريق وغيرهم، وأكاد اجزم ان الأمة العربية لم تبلغ أوج تألقها في عصورها الذهبية الا عندما أولت عنايتها باللغة بدءا من الكوفة والبصرة وصولا الى بيت الحكمة العباسي الذي أصبح فيه حتى الأعاجم عربا، لانهم تثقفوا بالثقافة العربية الاسلامية، فاللغة جوهر الهوية التي تتلاشى وتذوب بخراب اللغة، وهذا ما أدركه مفكرو المشرق العربي في مواجهتهم للاستعمار بأشكاله المختلفة، فعدو اللغة مقوما ورابطا أساسيا بين أفراد الامة، بل وأول رابط، بينما جعلوا الدين رابطا ثانويا، واطلقوا على ذلك برابطة (العروبة) وأخذوا بحسبانهم الأقليات المتآخية معهم، والمفارقة ان أوائل هؤلاء المفكرين من المسيحيين، واتضح بُعد نظرهم في راهننا العربي عندما فُعّل الاسلام السياسي بعد أحداث الحادي عشر من ايلول وفي ما يسمى بالربيع العربي، وكيف انه مزق الامة وشرذمها وطارد الأقليات وهجرها وهشم صورة الاسلام وشوهها حتى بتنا نرى اهتزازا في الهوية.

واذا كان اهمال اللغة ينطوي على جميع هذه المخاطر، فماذا فعلنا للغة لكي نحافظ على الهوية والخصوصية، وهو الشعار الذي يرفعه الاسلاميون قبل غيرهم؟ مع انهم يمسكون بناصية السلطة بشكل او بآخر في بلدان عربية عديدة، فمظاهر تراجع اللغة بادية للعيان، ومثالها ما يدور في مواقع التواصل الاجتماعي والوسط الجامعي وهو أداة التنوير المفترضة، والمخاطبات بين دوائر الدولة، وفي المؤسسة الدينية ممثلة بخطباء بعض الجوامع، والسياسيون الذين يراد منهم النهوض بالبلاد، اما الطلبة فالحديث عنهم لا يسر أبدا، وفي هذا يتبادل العاملون في مؤسسات التربية والتعليم العالي الاتهامات، وكل منهم يعلن براءته من دم يوسف.

ديالى